استشارة سرية

في عمر الرابعة عشرة، كنت قادمة من طفولة قضيتها في بلدٍ خليجي، بعيدًا عن الزحام والضوضاء. كانت الأخصائية النفسية تنظر إلى ورقتي وكأنما قد وُجهت لها إهانة شخصية! سرعان ما ارتسمت ملامح الغيظ على وجهها، وشرعت تنهرني -أنا الفتاة المجهولة التي بعثت باستشارتها السرية – بشدة. بأسلوب شبيه بالسخرية، لا يخلو من التأنيب، وعرفت بحدسي أنّ هذه الأخصائية مريضة وبحاجة إلى علاجٍ نفسي. قالت أني لن أغير الكون، ومن تظنين نفسك ؟! وأني فتاة غير طبيعية، و...!

بينما اكتسبت وداد تعاطف الجميع؛ لأنّ أبويها منفصلان، أصبحت أنا مسخرة الفصل كله، لأني شكوتُ من الزحام، والضوضاء، وتلوث البيئة الذي لم أتعود عليه. انتشر الغمز واللمز، وانهالت عليّ الأسئلة من جميع الجهات:

«يسرا، هل أنتِ من بعث بهذه الورقة؟» «هيا.. قولي الحقيقة.» «ولكني متأكدة أنكِ من بعث بها.» «هيه، أنتِ صاحبة هذه الاستشارة؟» الجميع الذين كانوا يعرفون أنني سوف أصرخ عندما يشتد الضجيج في الفصل، كانوا يسألونني رغم أنهم يعرفون، ويلحون في السؤال، رغبةً في تلقي اعترافٍ صريح مني بذلك، لم أقدمه لهن. فلا يكفي أن يعرفن هذا بأنفسهن فقط، بل عليَّ أن أقوله بنفسي؛ لا بد أن يخرج من فمي كي يستمتعوا به!

كان عدد الأوراق محدودًا، وقد وشت بوداد صديقتها المقربة. قالت الأخصائية: طيب يا بنات، دق الجرس، من لديه أي استشارة سرية أخرى فليكتبها لي في المرة القادمة، دون أن يذيلها باسمه، كما عودتكن!

العملية

أنا ميت، وأنا الآن عند الله، ولا يمكنني أن أخبرك بأكثر من ذلك، لأنّ هذه أسرار علوية! أما كيف مِت؟ فهذا سرٌ أرضي لا مانع من البوح به. سأقول لك: باستطاعة الوجع العميق وحده أن يصنع منك وحشًا يقتل الأطفال. عندما كنتُ أذرع ممر مقر الحركة جيئة وذهابًا في صباح يوم خميس مشئوم، كنت أفكر في مدى أخلاقية الأمر، فكرتُ أني بلا ضمير، لكنهم يستحقون ذلك.

تواردت على مخيلتي صور كثيرة، من عهد النبوة والخلافة الراشدة، وما كان المسلمون عليه، وما أمروا به في غزواتهم. قفزت إلى ذهني هذه الكلمات بوضوح، وظل صداها يتردد في أذني" لا تقتلوا صبياً، ولا امرأة، ولا شيخاً كبيرًا، ولا مريضًا ولا راهبًا، ولا تقطعوا مثمرًا، ولا تخربوا عامرًا، ولا تذبحوا بعيرًا ولا بقرة إلا لمأكل، ولا تغرقوا نحلاً، ولا تحرقوه."

وحاولتُ أن أبرر لنفسي الأمر: هؤلاء الأطفال سوف يكبرون يومًا ما، وسوف يتحولون لقتلة محتلين غاصبين، ولهذا لا بد من إفنائهم صغارًا، اليوم قبل الغد. ولم أقتنع كثيرًا، لكني رددت لنفسي: سنتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا.. نعم.. سوف أفعل!

بت ليلتي في مقر الحركة، وفي الصباح، انطلقت لمهمتي الفدائية! وفكرت: "انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخاً فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين." وقلت لنفسي: هذا صباح جمعة مباركة. وقلت: من يتوكل على الله فهو حسبه! وقلت: على بركة الله! وتذكرت الوصيةَ المسجلة التي تركتها لأمي وأبناء شعبي، بعد ساعات قليلة سيزفون خبر شهادتي وسيبتهجون به. تخيلت دموع أمي، وتوقعت أن تكون الجنازة مهيبة.

لا أدري لماذا انثالت على عقلي في الطريق ذكرياتي مع أفراد أسرتي فردًا فردًا، والمصير الذي انتهى إليه كلٌ منهم.

محمود الصغير؛ ها هو في المعتقل منذ تسع سنوات، كان طفلاً عندما اعتقلوه، لم يكن يتجاوز الثانية عشرة. أخي الأكبر عماد؛ استشهد في غارة غاشمة. وأبي مفقود، لا نعرف مصيرًا له. أختي سلوى، أصيبت بعاهة مستديمة في غارةٍ أخرى، وتخلى عنها زوجها الكلب عميل الاحتلال، لا أعرف كيف زوجناها لهذا النكرة الحقير؟!، لم نكن نعلم، حسنٌ أنهم قد شنقوه مؤخرًا في الحركة. وآخر العنقود أخي محمد؛ قتلوه في السابعة من عمره برصاصة صهيونية متعمدة. وأمي.. أعرف جيدًا أنها سوف تموت بحسرتها. وفكرت: هذا حال أسرتنا وحدها، وهو لن يختلف كثيرًا عن حال أسرة عمي مشعل أو عمي ناصر أو أسر عائلتنا كلها.

تجاوزت الحاجز اللعين بصعوبة، وبمعية هذا الجواز الأجنبي، قلت: جيد أني أحمل جنسية أمريكية مزورة. تجاوزت الحاجز الذي تلاه وفكرت: حسنٌ أني أحمل هوية مزيفة لصحفي أوروبي. ثم استقللت شاحنةً بعد ذلك، وجدتها في طريقي مصادفة، وأقنعت السائق أني أنوي عمل ريبورتاج صحفي مع أطفال المدرسة لاستقصاء مشاعرهم أيام الحرب.

وقلت في سري: هذه ليست حربًا وليست صراعًا بين طرفين. هذه قضية واضحة؛ جانٍ ومجني عليه، محتل وصاحب أرض، مجرم وضحية. وفكرت: هذا دفاعٌ عن الأرض، هذه مقاومة مشروعة، هذا استرداد للحق. وفكرتُ فجأة: ما ذنب الأطفال؟ لا أدري لماذا عندما وقفت عند باب المدرسة، تذكرت العرب جميعًا ووددت أن ألعنهم شخصًا شخصًا، لو أني أعرف أسماءهم فقط، لوقفت هناك ولعنتهم قاطبة، واحدًا تلو الآخر؛ من أصحاب حرف الألف إلى أصحاب حرف الياء، ومن الحاكم للمواطن، ومن أكبر رأس إلى أصغر رأس.

آخر ما فكرت فيه قبل أن يسمح لي حارس البوابة بالدخول هو النتائج الطيبة، والأثر الفعال، الذي سوف تتركه الواقعة في مسار القضية. سيعلمُ هؤلاء الأوغادِ جيدًا أنّ لدينا مواهب مماثلة، وباستطاعتنا أن نغدو وحوشًا أيضًا متى أردنا ذلك. أتخيلُ الواحد منهم، وهو يشاهد هذا الخبر في التلفاز ، ويكاد يبول في سرواله من الرعب. جبناءٌ دائمًا، قردة، خنازير، وسوف تضطرهم هذه العملية وعمليات مماثلة إلى الرضوخ قليلاً لشروطنا.

وفكرت مع ذلك: هؤلاء الأوغاد لا يرضخون أمام أي شيء، الشياطين نفسها لا تقدر عليهم، ولا يمكن أن تنافسهم في وقاحتهم وعنجهيتهم، وفي ضربهم لكل العهود والاتفاقيات بعرض الحائط.

لحسن الحظ، ضُرب جرس الفسحة، واندفعت جموع الأطفال خارجةً من الفصول، وتوقف عقلي عن التفكير. مددت يدي تحت سترتي عند بطني وضغطتُ أخيرًا هذا الزر، دق قلبي بسرعة، وفي اللحظة التي تبقت فيها ثانية واحدة، عرفتُ أني أرغب حقًا في الانسحاب، ولكن، لم يسعفني الوقت!